

# تاريخ أوقاف القدس نموذجاً لعدالة الإسلام والتعايش بين الأديان

سلامة محمد البلوي

الحمد لله والصلاة والسلام على نبيّ الرحمة والسماحة محمد بن عبد الله، وعلى آله وصحبه ومن سار على هديه إلى يوم الدين، وبعد:

فإن أوقاف القدس إبان الحكم الإسلامي تقدّم لنا تجربة فريدة في مجال التعايش بين الأديان السماوية الثلاثة، فأول مرة في تاريخ المدينة الطويل تجاورت المساجد مع الكنائس النصرانية والكنس اليهودية في جوّ من الودّ والتفاهم والسلام، وأول مرة في التاريخ أيضاً فتحت هذه المدينة المقدّسة ذراعيها لكل الأجناس والأديان والطوائف للعيش فيها وممارسة شعائرهم بكل حرية، وتحبيس الأموال والعقارات لخدمة أهالي وزوّار هذه المدينة المقدّسة.

لقد جسّدت أوقاف بيت المقدس ما يكتنّه أبناء الديانات الثلاث من حبّ لهذه البقعة المقدّسة، إذ يوجد داخل سور المدينة القديمة والتي لا تتجاوز مساحتها كيلومتراً مربعاً واحداً أكثر من ٢٧٤ مؤسسة وقفية للمسلمين والنصارى واليهود لمسح دموع الفقراء وتوفير الطعام والكساء والعلاج والمأوى لمن يقصد هذه المدينة للمجاورة أو الزيارة أو طلب العلم. إن هذا الكمّ الهائل من المؤسسات الوقفية في هذه الرقعة المحددة التي أقامها المسلمون بمختلف مذاهبهم، واليهود والنصارى على تعدّد طوائفهم، يدلّ بوضوح على نجاح تجربة التعايش بين الأديان، والتعاون الثقافي بين الدول والجماعات والأفراد، والتنافس في فعل الخير وتعزيز ثقافة "السّلم" بين البشر.

لقد عاش في المدينة المقدّسة عشرات الأجناس والطوائف والمذاهب والأديان والفرق، فكان هناك المسلمون بمذاهبهم الفقهية المتعددة، فضلا عن أكثر من سبعين طريقة صوفية، وكان هناك الأرمن، والسريان، والأقباط، والأحباش، والموارنة، واليونان، والطليلان، والروس، والإسبان،

والعرب، والبربر، والفرس، والهنود، والأكراد، واليهود، والكاثوليك، والأرثوذكس، والبروتستانت، بل لا يكاد صقع من أصقاع العالم إلا ومنه مجاورين في القدس ولهم فيها أوقاف، فأى تعايش وتواصل وتعاون بين الأديان والأجناس مثل هذا؟ وأي تسامح وعدالة عاشتها المدينة في ظل الإسلام وتحت رايته أكثر من هذا؟

ولعل قمة التعايش تصل ذروتها عندما يعهد النصارى للمسلمين بالإشراف على أقدس مؤسسة وقفية عندهم، ألا وهي كنيسة القيامة، حيث اتفق النصارى منذ ثمانمائة عام وحتى اليوم على إسناد مهمة الإشراف على هذه الكنيسة لأسرتين مسلمتين هما أسرة نسيبة وأسرة آل جودة، إذ تحتفظان بمفتاح الكنيسة ويقومان بفتحها والإشراف على شؤونها العامة.

وفي المقابل نجد المسلمين منذ عهد عبد الملك بن مروان يسندون مهمة الإشراف على صناعة قناديل وحصر المسجد الأقصى فضلا عن أعمال الحراسة والتنظيف لعشرة من النصارى وعشرة من اليهود، لا، بل أن بعض الأوقاف كانت مزارا للمسلمين والنصارى على حدٍ سواء، مثل كنيسة "السيدة مريم" التي تحتضن قبر مريم عليها السلام.

لقد بهرت عدالة الإسلام واليهود والنصارى والرحالة على مختلف أجناسهم وأديانهم، فقدّموا بكل أمانة شهاداتهم على سموّ الروح الإسلامية واحترامها للإنسان ومبادئ حقوقه. يقول يوسف الحكيم عندما زار القدس عام ١٩١٠م: "ساد الإخاء والموّدة بين المواطنين من مسلمين ومسيحيين، فهم يتبادلون العواطف في كل مناسبة، ولا سيما في الأعياد والمواسم على كثرتها، حتى ليعسر على المرء التفريق بينهم لولا بعض الحالات المتعلقة بالألبسة والأسماء الموروثة التي اختصّ بها كلُّ فريق دون الآخر. ويقول البطريرك عيشويابه ٦٤٧-٦٥٧م: إن العرب الذين مكّنهم الربّ من السيطرة على العالم يعاملوننا كما تعرفون بالحسنى، إنهم ليسوا بأعداء للنصرانية، بل يحترمون ملّتنا ويوقّرون قسيسينا، ويمدّون يد المعونة إلى كنائسنا وأديرتنا".

أما الرحالة اليهودي إسحاق بن يوسف (١٣٣٣م) فهو يعترف بأن اليهود يعيشون في المدينة المقدّسة بأمان وطمأنينة بفضل العدالة الإسلامية. كما أثنى الرحالة الأندلسي أبو بكر بن العربي، حين زار القدس، على روح التسامح التي كانت تسود المدينة، حيث كانت الحوارات بين المفكرين المسلمين واليهود والنصارى، فكانوا يبحثون مواضيع شتّى في الدين والروحانيات، إلى غير ذلك من الشهادات التي لا يتسع المقام لبسطها.

لقد اشترط النصارى على سيّدنا عمر الفاروق رضي الله عنه حين سلّموه مفاتيح المدينة المقدّسة أن لا يجاورهم فيها أحد من اليهود، كما أن اليهود بالأمس واليوم يؤمنون بأن هذه المدينة

خالصة لهم ويجب أن لا يشاركونهم في حكمها أحد، وجاء الإسلام ليقول بأن هذه المدينة حرة ومفتوحة للأديان الثلاثة تحت راية العدالة الإسلامية.

لقد مثّلت أوقاف القدس إبان الحكم الإسلامي نموذجاً فريداً للسماحة الراشدة والتي كانت تتخذ من قوله تعالى: ﴿وَأَفْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ ومن قوله تعالى: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾، فضلا عن توجيهات سيدنا المصطفى صلى الله عليه وسلم الكثيرة التي تدعو إلى التسامح والتعايش السلمي شعارا لها وهاديا لمسيرتها، حيث تحوّلت القدس مقراً للخطاب الديني القائم على استبقاء الآخر واحترام عقيدته.

وقد جاءت هذه الورقة محاولة متواضعة لإلقاء الضوء على تجربة القدس الوقفية إبان الحكم الإسلامي، واستحضار عناصرها المؤثرة في مسيرة الأمة منذ تحريرها على يد صلاح الدين الأيوبي عام ٥٨٣هـ/١١٨٧م، وحتى سقوطها بيد الصهاينة عام ١٩٦٧م، وذلك من خلال محاولة الإجابة عن التساؤلات الآتية:

كيف عبّرت أوقاف القدس الإسلامية عن الوحدة والتنوع؟ وما هي الأدلة والبراهين التي تثبت نجاح تلك التجربة في تعزيز التعايش بين الأديان في هذه البقعة المباركة؟ وكيف عبّرت أوقاف القدس عن تظافر الجهود الدولية لتوفير الأمن بمفهومه الشامل لسكان وزوار بيت المقدس؟ وقد جاءت الإجابة عن هذه التساؤلات في أربعة مباحث: تناول الأول منها مكتبات بيت المقدس الوقفية نموذجا للتعايش الثقافي والتواصل الدولي، وأفرد المبحث الثاني للخدمات الوقفية لزوار بيت المقدس من غير المسلمين، وتحدث المبحث الثالث عن الأوقاف الاجتماعية والصحية والتعليمية التي أوقفها أصحاب الديانات السماوية الثلاث، وجاء المبحث الرابع والأخير لحماية الدولة الإسلامية لأوقاف أهل الذمة، وقد ذيلت الدراسة بأهم النتائج والتوصيات التي خرجت بها.

وفي ختام هذه المقدمة لا بد أن أذكر بأن أوقاف القدس الإسلامية والنصرانية تتعرض منذ قيام دولة إسرائيل لهجمة مبرمجة لهدمها ومصادرتها وإلغائها؛ لأنها تفضح عنصرية اليهود وتبرز عدالة الإسلام، فقد أحرقت المسجد الأقصى، وتخلّصت من منبر صلاح الدين الذي يذكر بتسامح هذا القائد العظيم مع أهل الذمة، وهدّمت حي المغاربة، وحوّلت بعض الأوقاف إلى مراكز للشرطة، وغير ذلك مما يعرض كل يوم على مرأى ومسمع من العالم عبر شاشات التلفاز والمواقع الإلكترونية، والذي أثار اشمئزاز واستنكار الأحرار في العالم، كما حدا بإلياس الرابع، بطريك أنطاكية وسائر مشرق اللروم

الأرثوذكس إلى مخاطبة ملوك وقادة العالم الإسلامي في لاهور عام ١٩٧٤م يستنهض همهم للدفاع عن هذه المدينة المقدسة والمحافظة على التعايش الذي أرسى قواعده المسلمون حيث قال: "القدس محجّتكم على دروب الحرية، ونحن وإياكم مقدسيون رجاء وغرماً وبذلاً، وكيف نكون للقدس ناسين وبقيناً أن المدينة العظيمة قد غدت معراج الإنسانية إلى الله ... وإنه لمن دواعي غبطننا أن نخاطب المسيحيين من قلب هذا المؤتمر الإسلامي وأن نخاطب مسلمي الأرض في آن واحد لنقول لهم كلهم إن القدس محل اعتزازهم وفخرهم، نحن نريد معكم أن تكون القدس معقل روحانية طاهرة يدافع عنها الإنسان فيما نحج إلى الله ...". وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

### مكتبات بيت المقدس نموذجاً للتعايش الثقافي:

إن المتأمل لمكتبات بيت المقدس الوقفية يجد تجربة فريدة للتناغم بين الأجناس والتعايش بين الأديان السماوية الثلاثة إبان الحكم الإسلامي للمدينة المقدسة، ذلك الحكم الذي كفل للجميع حرية العبادة والتعبير، فتفجرت الطاقات وانطلق سكان المدينة المقدسة صفاً واحداً بملابس مختلفة لتحويل مدينتهم أنموذجاً للمدينة الفاضلة التي يعيش فيها الجميع بأمن وسلام، ولعل ما تزخر به مكتبات القدس الشريف من ذخائر تتعلق بعقائد وأفكار وفلسفات المسلمين وغير المسلمين والتي كتبت بالسريانية، واليونانية، والحبشية، واللاتينية، والعبرية، والفارسية، والتركية، والأردية، والعربية، والإنجليزية، والألمانية، والروسية، والأسبانية، والإيطالية، فيه الدليل الدامع على عالمية ثقافة هذه المدينة التي تشهد بسماحة وعدالة الإسلام التي سمحت لهذه الطوائف والمذاهب بالتعبير عن معتقداتها وأفكارها باللغة التي تراها.

لقد عبّر عشاق القدس من أصحاب الديانات السماوية الثلاث عن عشقهم وحبهم لمدينتهم من خلال إهدائهم لمكتباتها نوادر المخطوطات، والمصاحف، والمؤلفات الثمينة في مختلف حقول المعرفة لينتفع بها طلبة العلم الذين وفدوا إليها من مختلف أنحاء المعمورة، فانتشرت المكتبات في المساجد والزوايا والمدارس والأديرة والكنائس حيث كانت في الغالب الأعم مفتوحة للجميع<sup>(١)</sup>، فكيف عبّرت تلك المكتبات الوقفية عن روح التسامح والتعايش مع غير المسلمين على المستوى المحلي والدولي؟

وهذا ما يحاول أن يجيب عنه هذا البحث من خلال تسليط الضوء على أشهر المكتبات الإسلامية وغير الإسلامية في القدس والتي تجسّد حرص الإسلام على صيانة الحريات واحترام الإنسان

١- عبد اللطيف إبراهيم، دراسات في الكتب والمكتبات الإسلامية، القاهرة، د. ت، ص ١-٣٥، وفليب دي

طرزي، خزائن الكتب العربية في الخافقين، بيروت، ١٩٤٧م، ج ١، ص ٤١٣.

بغض النظر عن لونه أو جنسه أو معتقده في ظل عدالة عَزَّ نظيرها في تاريخ هذه المدينة وفي غير الإسلام من الديانات الأخرى.

#### أ- المكتبات الإسلامية:

لقد عبَّرت مكتبات بيت المقدس عن عمق محبة المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها لهذه البقعة المقدَّسة خاصة بعد تحريرها على يد صلاح الدين الأيوبي عام ٥٨٣هـ / ١١٨٧م، حيث تحولت القدس إلى جامعة عالمية مفتوحة زادت مكتباتها الوقفية عن مائة وسبعين مكتبة ملحقة بالمساجد والزوايا والمدارس والكتاتيب خلال فترة الدراسة<sup>(٢)</sup>، وهذا يبيِّن مدى إحساس الأمة بأنها استردت شيئاً عزيزاً لديها، لذا تسابق الحكَّام والرعية على إقامة هذه المكتبات والمرافق العامة لخدمة طلبة العلم والمجاورين الذين وفدوا إليها من مختلف أنحاء العالم الإسلامي طمعاً في الأجر والثواب وتحصيل المعرفة في هذه البقعة المقدَّسة، وقد صور لنا العماد الأصفهاني<sup>(٣)</sup> الازدهار الثقافي الذي شهدته القدس بعد تحريرها من نير الصليبيين بقوله: "فما ترى إلا قارئاً باللسان الفصيح وروياً للكتاب الصحيح ومتكلماً في مسألة... وذاكراً لحكم مذهبي وسائلاً عن لفظ لغوي ومعنى نحوي... أو ناشداً بنشيد". ومن أبرز مكتبات بيت المقدس الإسلامية التي تمثل تظافر جهود الأمة الخيرة في خدمة المعرفة والثقافة لسكان ورواد هذه المدينة من مختلف الأجناس والأعراق:

#### ١- مكتبة المسجد الأقصى:

وتعدُّ من أهم المكتبات الإسلامية في المدينة المقدَّسة من حيث مقتنياتها العلمية الفريدة ومخطوطاتها النادرة التي أهديت إليها من كبار العلماء والحكَّام وأثرياء الأمة، فعلى سبيل المثال: أحضر صلاح الدين الأيوبي من مكتبة دمشق العديد من المصاحف والكتب ووضعها في خزانة الأقصى، كما أهدى سلطان المغرب المريني أبو سعيد عثمان إلى خزانة الأقصى مصحفاً شريفاً في غاية الروعة والجمال قام بكتابته بيده، وأوقف عليه أوقافاً لقراءته في المسجد الأقصى إلى جانب عشرات المصاحف التي أوقفها سلاطين المماليك والعثمانيين.

ومن أجل ضمان استمرار هذه المكتبة في تقديم خدماتها لطلبة العلم عُرِّزَت بعشرات الأوقاف المنتشرة في معظم مدن فلسطين للإنفاق عليها وعلى طلبة العلم والعلماء والقائمين على التدريس، وقرأ:

٢- أحصى مجير الدين الحنبلي في كتابه: الأنس الجليل في تاريخ القدس والخليل، ج ٢، ص ٢٨٥-٣٩٨،

أكثر من ستين مدرسة وزاوية فضلاً عن مكاتب الأطفال، انظر: محمد أديب العامري، القدس العربية:

الحقائق التاريخية تجاه المزارع الصهيونية، عمان، ١٩٧١م، ص ١٣.

٣- الفتح القسي في الفتح القدسي، ص ١٥١.

القرآن في المصاحف الموقوفة من قبل أهل الخير في الأمة. وبعبارة أخرى كانت أوقاف مكتبة الأقصى تعبر تعبيراً صادقاً عن التواصل بين أبناء الأمة وتظافر جهودها في أعمال البر والخير المتعلقة بخدمة المعرفة ونشر الكتاب<sup>(٤)</sup>.

#### ٢- مكتبة الشيخ الخليلي:

تأسست عام ١١٣٨هـ/ ١٧٢٥م أوقفها شيخ الإسلام محمد الخليلي مفتي الشافعية بالقدس وأحد شيوخ الطريقة القادرية، وهي أول مكتبة عامة يوقفها أحد سكان مدينة القدس لأبناء المدينة المقدسة، وكان فيها سبعة آلاف كتاب، وكانت مفتوحة الأبواب للناس كافة<sup>(٥)</sup>.

#### ٣- المكتبة الخالدية العمومية:

وهي من أهم دور الكتب العامة في فلسطين وأغناها، أوصت بوقفها السيدة خديجة الخالدي ابنة قاضي عسكر برّ الأناضول موسى أفندي، وتمّ تأسيسها عام ١٣١٨هـ/ ١٩٠٠م، وقد وصل عدد كتبها عام ١٩٤٥م اثني عشر ألف كتاب: بالعربية والفارسية والتركية والإنجليزية والفرنسية، منها خمسة آلاف مخطوط في العلوم المختلفة<sup>(٦)</sup>.

---

٤- لمزيد من التفاصيل عن مكتبة المسجد الأقصى انظر: مجير الدين الحنبلي، الأئمة الجليل، ج ١، ص ٣٩٩، ج ٢، ص ١٦، ٩٦، ٣٨٠-٣٨٦، ٤٤٣-٤٤٥، وعارف العارف، المفصل في تاريخ القدس، ١٩٦١م، ص ٤٥١، وعبد الجليل عبد المهدي، الحركة الفكرية في ظل المسجد الأقصى في العشرين الأيوبي والملوكي، عمان ١٩٨٠م، ص ٢٧٤-٢٧٥، وحاتم أبو هلال، مكتبة المسجد الأقصى المبارك "ندوة المكتبات في بلاد الشام ٢٦-٢٨ تشرين أول ١٩٩٢م"، ص ٢٠٩-٢١٤، ومقال: أسعد طلس، "دور كتب فلسطين ونفائس مخطوطاتها"، مجلة المجمع العلمي بدمشق، مج ٢٠، ١٩٤٥م، ٢٤٠-٢٤١، وكامل العسلي، معاهد العلم في بيت المقدس، عمان، ١٩٨١م، ص ٣٧٦-٣٧٧.

٥- لمزيد من التفاصيل انظر: عارف العارف، المفصل في تاريخ القدس، ص ٤٤٩-٤٥٠، أسعد طلس، المقال السابق، من المجلة نفسها مج ٢٠، ص ٢٣٧، حسن عبد اللطيف الحسيني، تراجم أهل القدس في القرن الثاني عشر، تحقيق: سلامة صالح نعيمات، عمان، ١٩٨٥م، ص ١٣.

٦- فليب دي طرازي، المرجع السابق، ج ١، ص ١٢٤، ١٤٣، وكامل العسلي، تراث فلسطين في كتابات عبد الله مخلص مع دراسة مفصلة عن حياته وشخصيته العلمية، ص ١٧٠-١٧٨، عارف العارف، المفصل، ص ٤٤٩، أسعد طلس، المقال السابق، من المجلة نفسها مج ٢٠، ص ٢٣٦-٢٣٧، مج ٢١، ١٩٤٦م، أمين سعد أبو ليل، المكتبات الإسلامية في بيت المقدس، بحث مقدم إلى ندوة المكتبات في الأرض المحتلة، والتي عقدت في المركز الثقافي الملكي، عمان، ١١-١٣/١١/١٩٩١م، ص ٣-٤.

- ٤- مكتبة المدرسة النصيرية (الغزالية):  
 أنشأها نصر بن إبراهيم المقدسي في أواسط القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي وهي من أشهر المكتبات المقدسية في العهد الأيوبي والملوكي، وبسبب كثرة الكتب الموقوفة عليها أمها العلماء والطلاب من مختلف أرجاء العالم الإسلامي<sup>(٧)</sup>.
- ٥- مكتبة المدرسة الفخرية:  
 أوقفها القاضي فخر الدين محمد بن فضل الله (ت ٧٣٢هـ/ ١٣٣١م) والذي ينحدر من أصل قبطي، أسلم وحسن إسلامه، وهي مكتبة غنية بمخطوطاتها الدينية والفلكية، وكان عدد مجلداتها يقدر بنحو عشرة آلاف مجلد وقد استولت عليها إسرائيل بتاريخ ١٦/٦/١٩٦٩م<sup>(٨)</sup>.
- ٦- مكتبة المدرسة الأمينية:  
 أوقفها الشيخ محمد بن صالح شيخ المدرسة في القرن الثالث عشر الهجري على نسله ومن بعدهم على طلبة العلم من أتباع المذهب الشافعي في القدس<sup>(٩)</sup>.
- ٧- مكتبة المدرسة الصلاحية:  
 التي أوقفها صلاح الدين الأيوبي في ١٣ رجب ٥٨٨هـ<sup>(١٠)</sup>.
- ٨- مكتبة المدرسة الجاولية:  
 أوقفها نائب القدس الأمير علم الدين الجاولي ٧١٥هـ/ ١٣١٥م<sup>(١١)</sup>.
- 
- ٧- الأنتس الجليل، ج ٢، ص ٣٤، ٣٨٦، محمد كرد علي، خطط الشام، ج ٢، ص ١١٩، موسوعة المدن الفلسطينية، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، دائرة الثقافة، منظمة التحرير الفلسطينية، ط ١، ١٩٩٠م، ص ٦٠٠-٦٠١.
- ٨- أسعد طلس، المقال السابق، مج ٢٠، ص ٢٣٨.
- ٩- كامل العسلي، معاهد العلم، ص ٣٧٢، الموسوعة الفلسطينية، بيروت، ١٩٩٠م، مج ٣، ص ٢٨٦.
- ١٠- تقى الدين القرظي، السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٩٩٧م، ج ٢، ص ٢٢٨، ج ٥، ص ٣٠١، عارف العارف، الفصل، ص ١٧٩، الموسوعة الفلسطينية، مج ٤، ص ٢٨٦.
- ١١- سعيد عبد الفتاح عاشور، بعض أضواء جديدة على مدينة القدس في عصر سلاطين المماليك، المؤتمر الثالث لتاريخ بلاد الشام وفلسطين، عمان، الأردن، مج ١، ص ١٠٠.

- ٩- مكتبة المدرسة التنكيزية:  
أوقفها نائب دمشق الأمير تنكيز الناصري سنة ٧٢٩هـ / ١٣٢٨م. كانت مكتبتها من المكتبات الغنية بالكتب على المذاهب الأربعة، استولت عليها إسرائيل في ٢٤/٦/١٩٦٩م وحولتها إلى موقع عسكري(١٢).
- ١٠- مكتبة آل قطينة:  
وهي المكتبة الحنبلية الوحيدة في القدس، وتشتمل على أربعة آلاف مجلد منها ثمانمائة مخطوط في مختلف فنون المعرفة وقد اختفت هذه المكتبة بعد احتلال إسرائيل لفلسطين عام ١٩٤٨م(١٣).
- ١١- مكتبة الشيخ أحمد بن يحيى:  
الشهير بالموقف والذي ينحدر من أصول مغربية، مفتي الحنفية والمدرس بالأقصى (ت ١١٧١هـ / ١٧٥٧م) أوقف كتبه صدقة جارية على طلبة العلم(١٤).
- ١٢- مكتبة البديري:  
أوقفها الشيخ محمد بدير المقدسي (١٢٢٠هـ / ١٨٠٥م) أحد علماء القدس الكبار بموجب حجة شرعية مؤرخة في ١٩ ذي الحجة سنة ١٢٠٥هـ / ١٧٩٠م وكانت تضم ألف مخطوط(١٥).
- ١٣- مكتبة عبد الله مخلص:  
(ت ١٩٤٧م) أحد علماء التاريخ والآثار، كانت تشتمل على مائة وعشرة مخطوطات إلى جانب أكثر من ٣٠٠ مجلد وقد نقلت إلى دير القربان في عام ١٩٤٨م إلا أنها ضاعت تحت الأنقاض بعد نسف الصهاينة للدير(١٦).

- ١٢- علي السيد، القدس في العصر المملوكي، القاهرة، ط ١، ١٩٨١م، كامل العسلي، وثائق مقدسية مع مقدمة حول بعض المصادر الأولية لتاريخ القدس، عمان، ١٩٨٣م، مج ١، ص ١١٧.
- ١٣- أسعد طلس، المقال السابق، مج ٢٠، ص ٢٣٨، فليب دي طرازي، المرجع السابق، ج ١، ص ١٤٣، ٢٩٣، ج ٢، ص ٤٧٥، محمد كرد علي، المرجع السابق، ج ٦، ص ١٩٥-١٩٦.
- ١٤- عارف العارف، المفصل في تاريخ القدس، ص ٤٥١، الموسوعة الفلسطينية، مج ٣، ص ٢٨٨.
- ١٥- كامل العسلي، وثائق مقدسية، مج ٢، ص ٢٩١-٢٩٣، الموسوعة الفلسطينية، مج ٣، ص ٢٨٨-٣٠٦.
- ١٦- الموسوعة الفلسطينية، مج ٣، ص ٢٩٦-٣٠٦، مج ٤، ص ٢٨٦، أسعد طلس، المقال السابق، مج ٢٠، ص ٢٣٨.



١٤- مكتبة ابن قاضي الصلت:

شرف الدين بن محمد الشهير بابن قاضي الصلت (١٠٤٠هـ/ ١٦٣٠م) إمام المسجد الأقصى، أوقف كتبه سنة ١٧٠٠هـ/ ١٥٩٨م وهي تضم الكثير من الكتب المشهورة في مختلف حقول الثقافة الإسلامية<sup>(١٧)</sup>.

١٥- مكتبات الزوايا:

ومنها مكتبة الزاوية النقشبندية التي كان يؤمها حجّاج باكستان، وزاوية الهنود للحجّاج القادمين من الهند، والزاوية القادرية لحجّاج أفغانستان، وكل زاوية لها مسجد وغرف نوم وخزانة كتب ولها أوقاف تنفق منها<sup>(١٨)</sup>.

لقد كانت مكتبات القدس الوقفية مشرعة الأبواب لطلبة العلم والزوار الوافدين إلى القدس من المغرب ومصر والسند وأفغانستان وسمرقند، والبلقان، وإسطنبول ومن مختلف أنحاء العالم الإسلامي للانتفاع بتلك المكتبات ومن يحاضر في مدارس وزوايا القدس من كبار العلماء<sup>(١٩)</sup>.

وكانت العقارات الموقوفة على مكتبات القدس منتشرة في جميع أنحاء فلسطين والأقطار الإسلامية، ومنها ما كان في بلاد الروم، فهناك على سبيل المثال ٧٥٠ وثيقة ووقفية تنص على أن أهل الخير من حكام وعلماء ونساء وأهل قدر أوقفوا أموالاً وعقارات على المؤسسات الدينية والثقافية والاجتماعية في القدس<sup>(٢٠)</sup>، وهناك أيضاً ٥٢ عقاراً مثلاً موقوفاً على المدرسة الأشرفية<sup>(٢١)</sup>.

لقد مثلت مكتبات القدس الأطياف الفقهية السائدة فضلاً عن اتجاهات الطرق الصوفية المتعددة، إضافة إلى اشتراك العديد من الأجناس من أبناء الإسلام من عرب ومغاربة، ومصريين، وشاميين ومماليك، وأتراك، وهنود<sup>(٢٢)</sup>.. بدعم تلك المكتبات من خلال تحبيسهم للأموال والعقارات والمزارع للإنفاق عليها فهي بحق تجسّد روح التعايش والتمازج بين الأجناس والتواصل بين المذاهب والطوائف المختلفة وتؤشر إلى اهتمام الإسلام بالعلم والحرص على تعميم المعرفة ونشر العلوم.

١٧- الموسوعة الفلسطينية، مج ٣، ص ٢٩٠-٢٩١.

١٨- محمد كرد علي، المرجع السابق، ج ٦، ص ١٤٨-١٥٠.

١٩- عارف العارف، تاريخ الحرم القدسي، ص ١٠٩.

٢٠- انظر على سبيل المثال: المقريري، المصدر السابق، ج ٧، ص ١٧٣.

٢١- كامل العسلي، معاهد العلم في بيت المقدس، ص ١٦٨-١٦٩، ٣٧٣، محمد كرد علي، المرجع السابق،

ج ٦، ص ١١٧.

٢٢- المقريري، المصدر السابق، ج ٧، ص ١٧٣.

## ب- المكتبات غير الإسلامية:

كما تسابق المسلمون من حكام ومحكومين في بذل الأموال ووقف الأوقاف لتعزيز الهوية الإسلامية للمدينة المقدسة، كذلك تبارت الجماعات والدول غير المسلمة في تعزيز وجودها في هذه المدينة المقدسة مستغلة روح التسامح لدى المسلمين واحترامهم لأهالي الشرائع السماوية، وقد عكست مقتنيات وأوقاف الكنائس والأديرة والكنس في بيت المقدس عالمية هذه الأوقاف التي شاركت فيها الدول والأفراد من مختلف أنحاء أوروبا الغربية والشرقية على حد سواء، فضلاً عن نصارى ويهود العالم الإسلامي، مما يفسر هذا التنوع والتعدد في اللغات التي كتبت بها مقتنيات تلك المكتبات والتي زادت عن إحدى عشرة لغة "اللاتينية، والسريانية، والحبشية، والروسية، والعبرية، والإنجليزية، والفرنسية، والإيطالية، والألمانية، والتركية، والعربية ... وغيرها. ومن أبرز تلك المكتبات التي تعكس من خلال مسمياتها هذا التنوع والتعايش والتسامح في هذه المدينة:

### ١- مكتبة الفرانسييسكان:

تأسست عام ١٥٦١م وهي مكتبة عامة، تعدّ في نظر بعض الباحثين من أغنى مكتبات العالم بما تحويه من وثائق تتعلق بالقدس والتي حافظ عليها الرهبان منذ أكثر من سبعة قرون، ويبلغ عدد كتبها ٤٢٠٠٠ مكتوبة بلغات مختلفة، كما تحتفظ بمجموعة من المخطوطات النادرة والتمينة منها ٤٥٤ فرمناً تركياً تتعلق بكنيسة القيامة وأديرة أخرى (٢٣).

### ٢- مكتبة البطريركية الأرثوذكسية:

"دير الروم" يوجد فيها ٢٤٠٠ مخطوط في إحدى عشرة لغة (٢٤).

### ٣- مكتبة دير الأرمن:

"دير مار يعقوب" - بني الدير سنة ١١٦٥م، وفيه أكبر مجموعة من الوثائق الأرمنية القديمة في العالم يرجع بعضها إلى القرون المسيحية الأولى، وقد أسست في الدير عام ١٩٢٩م مكتبة أرمنية ضخمة فيها أكثر من ٦٠ ألف مجلد، منها ٣٧٠٠ وثيقة مخطوطة (٢٥).

٢٣- السيدة فيراكوسا، مكتبات الأديرة في منطقة القدس وبيت لحم "دراسة حالة" ندوة المكتبات في بلاد

الشام "٢٦-٢٨ تشرين أول ١٩٩٢م"، ص ٤٠، وأحمد سيد دراج، وثائق دير صهيون بالقدس الشريف، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٦٨م، ص ١٧-٢١.

٢٤- فيراكوسا، المقال السابق، ص ٤٥-٤٦، وكامل العسلي، وثائق مقدسية تاريخية، مج ١، ص ٥٤-٥٨.

٢٥- كامل العسلي، وثائق مقدسية، مج ١، ص ٦٥-٧٢، الموسوعة الفلسطينية، مج ٣، ص ٣٠٨.

- ٤- مكتبة دير السريان:
- ”دير مار مرقص“، من أقدم المكتبات في القدس، وبعض مخطوطاتها مكتوب بالعربية والتركية (٢٦).
- ٥- مكتبة بطيركية اللاتين:
- تأسست عام ١٨٤٨م تضم ٤٣ ألف مجلد بلغات أجنبية مختلفة (٢٧).
- ٦- مكتبة القديسة آن:
- تأسست عام ١٨٨٣م، لخدمة الباحثين في تاريخ الكنيسة الشرقية تشتمل على أربعين ألف مجلد معظمها باللغة الفرنسية بالإضافة إلى اللغات الأوروبية الأخرى (٢٨).
- ٧- مكتبة بطيركية الروم الكاثوليك:
- تأسست عام ١٨٩٠م، يوجد فيها ثلاثة آلاف كتاب بلغات مختلفة (٢٩).
- ٨- مكتبة كنيسة القديسة مريم:
- فضلاً عن عشرات المكتبات التي لا يتسع المجال لذكرها مثل مكتبة دير الدومنيكان، والآباء البيض، ودير السلطان الذي حوى كتباً باللغة الحبشية (٣٠).
- فيندر أن يوجد دير أو كنيسة أو كنيس لا توجد فيه مكتبة وأوقاف تمدّه بالعموم للاستمرار في رسالته.
- لقد كانت تغذّي هذه المكتبات العامة أوقاف عديدة داخل القدس وفلسطين والأقطار الأوروبية الغربية والشرقية. ولقد أحدثت أوقاف المكتبات في بيت المقدس نهضة علمية فريدة في المدينة المقدّسة، إذ أصبحت محطّ أنظار العلماء وطلبة العلم والحجّاج من أبناء الشرائع السماوية الثلاث مما ترتب عليه مزيداً من التمازج والتعايش بين سكان هذه المدينة المقدّسة ذات الصبغة الروحية العالمية، فكانت أوقاف القدس الإسلامية والنصرانية بشكل خاص تنفق على عشرات الآلاف من أبناء تلك المدينة من خلال عملهم في خدمة تلك المكتبات، فكان في معظم المكتبات خازن، وناسخ، ومترجم،
- 
- ٢٦- طرازي، خزائن الكتب العربية في الخافقين، ج ٢، ص ٤٧٨-٤٧٩.
- ٢٧- انظر: فيراكوسا، المقال السابق، ص ٤١-٤٧، علي السيد، القدس في العصر المملوكي، ص ١٧١، زياد عبد العزيز المدني، القدس وجوارها خلال ١٢١٥-١٢٤٥هـ، ص ٢٨٢.
- ٢٨- نفس المصدر.
- ٢٩- نفس المصدر.
- ٣٠- نفس المصدر.

ومناول، ومجلد، وقد حدّدت وثائق الوقف بشكل مفصّل في العصر المملوكي واجبات من يعمل في خدمة المكتبات، وحدّدت على سبيل المثال راتب شهري للخازن من ريع الوقف المخصّص للمكتبة. لقد ساعد تنوع الطوائف والجاليات المقيمة في القدس من مختلف الأجناس والأديان والمذاهب على ازدهار حركة الترجمة في المدينة المقدّسة وتبادل المؤلفات، والتواصل الثقافي والتعايش العلمي بين الجميع، فمن أشهر المترجمين الذين ظهروا في القدس خاصة في مكتبات الأديرة والكنائس: الأب إيوستيموكاستلاني (Eustimio Castellani) والأب جيرولامو جولوبوفتش، (Girolamo Golubovich) ويوسف اسطفان السرياني وغيرهم<sup>(٣١)</sup>.

إن تعدد مكتبات الأديرة والكنائس يعكس الحرية الدينية التي أتاحتها المجتمع الإسلامي في القدس لعلماء تلك الطوائف الذين انصرفوا للتأليف ونسخ المخطوطات، وقد تنافست الطوائف فيما بينها في جمع ونسخ المؤلفات القيمة، حتى أن طائفة كاليعاقة قد حرصت على جمع ما يمكن جمعه من كنوز المعرفة، وإعداد مكان خاص لعرض تلك الكتب وتقديمها للقراء تشجيعاً منهم للحركة العلمية في القدس. ويذكر أحد الحجّاج النصارى الذين زاروا القدس في العصر المملوكي أن كنيسة القديسة مريم بجوار كنيسة القبر المقدس كان بها مكتبة رائعة، وأن مكتبة القبر المقدس التي أنشأها الروم الأرثوذكس كانت زاخرة بكافة المعارف الإسلامية والمسيحية<sup>(٣٢)</sup>.

#### الأوقاف الخيرية على بيوت العبادة والتعليم:

تكاد معظم أرض فلسطين أن تكون وفقاً على المسجد الأقصى والمساجد الأخرى في المدينة حيث كان ينفق من هذه الأوقاف على سبيل المثال في عام ١٠٥٨هـ/ ١٦٤٨م على مائتين وأربعين محراباً وسبع مدارس للحديث وعشر للقرآن وأربعين مدرسة وخانقاه لسبعين مدرسة صوفية، فضلاً عن ٨٠٠ ثمانمائة إمام وواعظ يعملون في الحرم والمدارس، وخمسين مؤذناً، وعدد كبير من مرتلي القرآن الكريم للمصاحف الموقفة على الأقصى والتي منها: ربعة سلطان المغرب أبي الحسن المريني الذي عين لقراءتها عندما أوقفها عام ٧٤٥هـ/ ١٣٤٤م صباح كل يوم ثمانية عشر نفساً منهم خمسة عشر من

٣١- أحمد سيد دراج، المرجع السابق، ص ١٧-٢١، طرازي، المرجع السابق، ٤٧٦-٤٧٩.

٣٢- علي السيد، المرجع السابق، ص ١٧١، موسوعة المدن الفلسطينية، ص ٦٠٢.

حفاظ القرآن الكريم على أن يكونوا من المغاربة المالكيين وخادمان من المسلمين وأوقفت على ذلك عدة مرافق في مدينة الرملة الفلسطينية<sup>(٣٣)</sup>.

ولعل المتأمل لوثائق المتحف الإسلامي في القدس يجد ٧٥٠ وثيقة معظمها وقفيات أوقفها أصحابها على المؤسسات الدينية والثقافية<sup>(٣٤)</sup>، ناهيك عن الوثائق المتعلقة بأوقاف أكثر من ٥٩ تسع وخمسين كنيسة ودير وكنيس لليهود والنصارى، فقد ذكر مجير الدين الحنبلي أن اليهود امتلكوا كنيسة وأوقافاً خاصة بهم، وقد نصّت الوثيقة رقم ٤٦ من وثائق المتحف الإسلامي في القدس أنه كان من ضمن أوقاف كنيسة القيامة حمامات عامة، منها حمام البطريرك في القدس والذي قام باستجاره الشقيقان داود بن نصر وأحمد بن نصر بتاريخ ١٩ محرم ٧٤٧هـ/ ١٣٤٦م بمبلغ ١٣ درهم فضة نقرة يومياً، عشرة دراهم أجره الحمام وثلاثة لتنظيفه واستلم المؤجر منهم سلفاً مبلغ ٣٠٠ درهم أجره شهر كامل<sup>(٣٥)</sup>.

وقد كانت الأديرة والكنائس والكنس اليهودية تدعم أوقافها من مختلف أرجاء العالم من روسيا، وألمانيا، وإيطاليا، وأسبانيا، ومن مصر والشام، وأوروبا الشرقية...<sup>(٣٦)</sup>، فقد كانت دولية التمويل، فقد قام البطريرك كيرلس الثاني ١٢٦١-١٢٨٩هـ/ ١٨٤٥-١٨٧٢م بشراء الدور الواقعة فوق باب العمود المعروفة بدور خضير من عائلة الخالدي فعمرها وأوقفها لأجل سكنى الأرثوذكس الوطنيين وسماها دير إسبيريدون، كما بنى القنطرة التي تصل الدير المركزي بالبطيركية<sup>(٣٧)</sup>. إضافة إلى ذلك نشط في عام ١٢٥٢هـ/ ١٨٣٦م الروم الأرثوذكس في إصلاح وتعمير الطريق من البطيركية الأرثوذكسية حتى كنيسة القيامة، كما قاموا بشراء بيت كبير مجاور لكنيسة القديس ايثيميوس ودفعوا خمسين ألف قرش ٥٠٠٠٠ ثمناً له من تبرعات كان أحضرها من موسكو كبير أساقفة الروم الأرثوذكس في الناصرة<sup>(٣٨)</sup>.

- 
- ٣٣- الموسوعة الفلسطينية، مج ٣، ص ٣٠٢، كامل العسلي، معاهد العلم، ص ٣٧٦، ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص ٣٠٢.
- ٣٤- يوسف غوانمة، تاريخ نيابة بيت المقدس في العصر المملوكي، دار الحياة، عمان، الأردن، ١٩٨٢م، ص ١٠٧.
- ٣٥- المرجع السابق، ص ١٠٩.
- ٣٦- المقرئ، المصدر السابق، ج ٢، ق ١، ص ١٤٤.
- ٣٧- رؤوف سعد أبو جابر، الوجود المسيحي في القدس في القرنين التاسع عشر والعشرين، ص ٥٣.
- ٣٨- المرجع السابق، ص ٣٢.

ومن الملاحظ أن أوقاف البطريركية الأرثوذكسية هي من أكبر الأوقاف وهي تتوزع بين فلسطين وأوروبا، وقد استُهدفت هذه الأوقاف في القدس وفلسطين منذ أواخر عام ١٣٦٨هـ/ ١٩٤٨م من قبل إسرائيل حيث بيع قسم كبير منها أو أُجّر تأجيراً لمدة طويلة تصل إلى ٩٩ سنة أو هدم أو صودر. وقد بلغ عدد المدارس الإسلامية ما بين القرن الخامس الهجري وحتى القرن الثاني عشر الهجري حوالي سبعين مدرسة ووقفية، كلها تقدّم التعليم بالمجان من ريع أوقافها الإسلامية، لا بل أن بعضها كانت تقدّم رواتب شهرية وإعانات عينية لطلابها. ومن هذه المدارس عشرة وقفها سلاطين وثلاثون وقفها أمراء أو حكام، وثلاث وقفها أميرات أو نساء ثريّات، وعشر وقفها تجّار، وأربع وقفها علماء. وكانت هذه المدارس مدعومة من منظومة من الأوقاف منتشرة في جميع أنحاء فلسطين وفي بلاد الشام، ومنها ما كان في بلاد الروم وغيرها والتي كان منها: المزارع والحمامات العامة، والخانات، والطواحين، والمعاصر، والأفران، والعديد من القرى(٣٩).

وكانت الأوقاف على المدارس تتفاوت بطبيعة الحال حسب مكانة الواقف وثروته، ومن الأمثلة على ذلك المدرسة الصلاحية التي أوقفها صلاح الدين الأيوبي، حيث أوقف عليها أوقافاً سخية كان منها: سوق العطارين في القدس، ووادي سلوان، وحمام عام، وخان، وبئر أيوب وقرية نعليا وغيرها(٤٠). ويدلنا سجل الأراضي العثمانية رقم ٦٠٢ أنه كانت ٢٨ قرية منها ٢٢ قرية تابعة لغزة، و ١٤ مزرعة، وحمام ودكاكين ومعصرة وخان وفرن بغزة، كلها موقوفة من قبل السلطان المملوكي "قابتباي" على المدرسة الأشرفية التي تقع في الرواق الغربي لحرم بيت المقدس، بل أن هناك من يذكر أن ٥٢ عقاراً كانت موقوفة على هذه المدرسة(٤١).

ومن المدارس التي كانت غنية بأوقافها المدرسة الفارسية والمدرسة التنكيزية والداوادية حيث كانت قرى طولكرم، وبيت نبالا، وحجلا، وطبرس، وعين قينية قرب رام الله، إلى جانب العديد من الخانات والطواحين والدكاكين(٤٢).

---

٣٩- كامل العسلي، مؤسسة الأوقاف ومدارس بيت المقدس، ندوة مؤسسة الأوقاف في العالم العربي الإسلامي،

المنظمة العربية للتربية والثقافة والفنون بالتعاون مع معهد البحوث والدراسات العربية، بغداد، ١٩٨٣م، ص ٩٥.

٤٠- مجير الدين الحنبلي، المصدر السابق، ج ٢، ص ٥٠، العسلي، المقال السابق.

٤١- كامل العسلي، المقال السابق، ص ٩٧.

٤٢- المقال السابق، ص ٩٨.

وفي العصر المملوكي تمكّن اليهودي الشهير موسى بن نخمان من إحياء طائفة اليهود المعلمين في القدس، وبنى مركزاً خاصاً أوقفه لتعليم اليهود، وبنى المعبد الذي يحمل اسمه بالإضافة إلى ما يعرف بالأكاديمية اليهودية في القدس والتي تخصصت في تعليم اليهود<sup>(٤٣)</sup>. علماً بأن معظم اليهود الذين تفرغوا لدراسة التوراة والتلمود، وكانوا يعيشون على المساعدات الوقفية المقدمة لهم من مختلف أنحاء العالم<sup>(٤٤)</sup>، كما كانت المدارس النصرانية والملحقة بالأديرة والكنائس تقدّم خدماتها للطوائف النصرانية المختلفة كما كانت مفتوحة لأبناء المسلمين خاصة الفقراء والأيتام منهم.

لقد قدمت أوقاف القدس التعليمية خدماتها لشريحة كبيرة من الطلبة من مختلف أرجاء المعمورة من المغرب حتى السند ومن سمرقند إلى مصر، فضلاً عن بلدان أوروبا المختلفة فكانت بحق عالمية في أهدافها إنسانية في خدماتها.

#### الأوقاف الخيرية العامة:

أ- أوقاف الطعام والكساء:

لعل وقف "تكية خاصكي سلطان" الذي أوقفته زوج السلطان سليمان القانوني عام ٩٥٩هـ/ ١٥٥١م من أهم الأوقاف الخيرية في فلسطين على العموم والقدس على الخصوص، حيث كان يشتمل على مطبخ يوزع منه الطعام وعلى مسجد ورباط ومدرسة، وقد انتشرت أوقاف التكية في خمسة سناجق من بلاد الشام، وبلغ عدد القرى والمزارع الموقوفة على التكية ٣٤ قرية ومزرعة<sup>(٤٥)</sup>. فكانت مؤسسة اجتماعية متكاملة تقدّم الطعام والمأوى والتعليم.

أما وقف بركة سليمان فهو أول وقف وقفه سيّدنا عثمان بن عفّان رضي الله عنه في فلسطين على فقراء بيت المقدس<sup>(٤٦)</sup>، كما أوقف العالم الزاهد المغربي شعيب بن محمد بن شعيب المعروف بأبي مدين في عام ١٣٢٠ الوقف المعروف باسمه "وقف أبي مدين"، وكان يهدف من وقفه هذا تلبية حاجات المغاربة الجدد خاصة الفقراء منهم. فأمر بأن يخبز لكل منهم رغيفان يومياً خلال الأشهر

٤٣- صابر ذياب، دراسات في عالم البحر المتوسط في العصور الوسطى، ص ٦٣.

٤٤- كارين أرمسترونج، القدس مدينة واحدة عقائد ثلاث، ترجمة فاطمة نصر، ومحمد عناني، ١٩٩٨م، ص ٥٧٣.

٤٥- كامل العسلي، مؤسسة الأوقاف ومدارس بيت المقدس، ص ٩٨.

٤٦- مايكل دمير، سياسة إسرائيل تجاه الأوقاف الإسلامية في فلسطين ١٩٤٨-١٩٨٨م، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، ١٩٩٢م، ص ١٨٨.

الحُرْم، وأن تقدّم وجبة من الطعام في الأعياد الإسلامية الرئيسية، إضافة للإنفاق من أموال الوقف على أكفان أموات فقراء المغاربة وجنائزهم، وكان يؤتى بالأموال اللازمة لهذه الأوجه من أرضه الزراعية وممتلكاته في عين كارم، ومن أملاكه على باب السلسلة<sup>(٤٧)</sup>.

أما الفرنسيون فكانوا في عام ١٨٣٤م يقومون بتوزيع الخبز أسبوعياً على نحو ثمانمائة مسيحي ومسلم في مدينة القدس<sup>(٤٨)</sup>. وكان معظم يهود القدس يعيشون على ما يسمونه الـ (Halakka) وهي صدقات كانت تجمع من يهود الشتات لمساعدة مجتمعهم في المدينة المقدّسة، كما قام المليونير اليهودي موسى مونيغور ١٢٧٤هـ / ١٨٥٧م بجهود كبيرة في رعاية فقراء اليهود<sup>(٤٩)</sup>. وفي أواخر القرن الثامن عشر الميلادي قام دير الأرمن في القدس بشراء بعض العقارات وأوقفها على فقراء رهبان طائفة الأرمن القاطنين في دير مار يعقوب في القدس<sup>(٥٠)</sup>. ولعل عائلة العلمي من الأسر التي تركت بصمات واضحة في الثلث الأول من القرن العشرين وبالتحديد في عام ١٣٥١هـ / ١٩٣٢م من خلال وقفها للأوقاف على فقراء بيت المقدس<sup>(٥١)</sup>.

وهكذا قدمت أوقاف القدس الدليل والبرهان على عدالة وسماحة الإسلام والمسلمين، وعبرت أوقاف القدس عن عالميتها، وإنسانيّتها، وروحانيّتها، ومحبتها للجميع دون تفرقة بين لون أو جنس أو دين وهكذا نجح التعايش من خلال أعمال البر والإحسان وقدم صورة مضيئة في مسيرة تاريخ الإنسانية، فالقدس حقاً مدينة السلام والرحمة والحرية، والبقعة الوحيدة إبان حكم المسلمين التي تجاوزت فيها الديانات السماوية الثلاث دون تناحر أو تحارب رداً من الزمن، فهل تتعلم البشرية درساً من تجربة هذه المدينة ليعم الأمن والسلام بين أتباع الديانات الثلاث؟.

ب- رعاية الأيتام:

لقد حاولت أوقاف القدس بمختلف أطيافها أن تقدّم الرعاية الشمولية لسكان القدس، وكل من يحج إليها، حيث تنوعت الخدمات الوقفية التي تتلمس الجوانب الضعيفة في المجتمع المقدسي، ومن تلك الخدمات رعاية الأيتام والأخذ بأيديهم إلى بر الأمان، فانتشرت المدارس والدور الخاصة

٤٧- المرجع السابق، ص ١٨٩.

٤٨- كارين أرمسترونج، المرجع السابق، ص ٥٦٤.

٤٩- المرجع السابق، ص ٥٧٣.

٥٠- رؤوف سعد أبو جابر، الوجود المسيحي في القدس في القرنين التاسع عشر والعشرين، ص ٥٦.

٥١- مايكل دمير، المرجع السابق، ص ١٩٠.



برعاية هذه الشريحة الاجتماعية التي أوصت بها الديانات السماوية الثلاث ، فكان على سبيل المثال تخصص مرتبات شهرية للأيتام في المدارس الإسلامية الوقفية، فضلاً عن الكسوة وكما هو الحال في المدرسة الباسطية للأيتام التي كان يتقاضى فيها الطالب في عام ٨٣٤هـ / ١٤٣٠م ١٥ درهماً شهرياً، وكان يعطى اليتيم في عيد الفطر ٣٠ درهماً بدل كسوة(٥٢).

ومن المدارس التي قدمت خدمات جليلة لأيتام المدرسة التنزيقية التي بناها نائب حاكم سوريا عام ١٣٢٨م، إذ احتوت على أربع قاعات للمحاضرات والصلاة، فضلاً عن خنقة لاثني عشر متصوّفاً، ومدرسة للأيتام ومن ثم كانت الدراسة والصلوات والمدائح الصوفية وأعمال البر تمارس من تحت سقف واحد، كما اشتهرت في القدس دار الأيتام الإسلامية التي لا تزال قائمة حتى اليوم(٥٣). ولم تقتصر رعاية الأيتام على أوقاف المسلمين بل تعدتها إلى مختلف الطوائف الدينية، فكانت مثلاً، مدرسة "طالثيا قومي" الألمانية ميمت خاص للبنات وقد أدت خدمات كثيرة لسكان فلسطين، كما قامت "كلية شميدت" للبنات والتي تأسست عام ١٣٠٤هـ / ١٨٨٦م من قبل الجمعية الألمانية الكاثوليكية للأراضي المقدسة، وغايتها تعليم البنات العربيات وتدريبهن على الشؤون المنزلية حتى مستوى الثانوي العالي، وكان عدد الطالبات عام ١٣٦٥هـ / ١٩٤٥م يتجاوز الأربعمائة والخمسين طالبة يعيش منهن بحدود السبعين في القسم الداخلي. ولعل دار الأيتام السورية التي أقامها القس "يوحنا لودفيغ شنلر" بتاريخ ١١/١١/١٨٦٠م كانت تعتمد على المساعدات التي كانت تأتي إليها من ألمانيا، وكان طلابها من الفتيان والفتيات الأيتام، وقد اشتهرت بتعليم الصناعات كالنجارة والحدادة والخياطة والطباعة، وصنع الخزف وشغل الأحذية(٥٤).

وهكذا كانت الأوقاف الإسلامية والمسيحية في القدس فضلاً عن الدعم الدولي لتلك الأوقاف نموذجاً رائعاً للتعاون الدولي في خدمة الإنسان وصيانة كرامته، من خلال تلبية حاجاته النفسية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية من خلال رعاية الأيتام وتعليمهم وتأهيلهم ليأخذوا دورهم في المجتمع.

٥٢- كامل العسلي، مؤسسة الأوقاف ومدارس بيت المقدس، ص ١٠٢.

٥٣- كارين أرمسترونج، المرجع السابق، ص ٥٠٦-٥٠٧.

٥٤- رؤوف سعد أبو جابر، المرجع السابق، ص ٧١-٧٢.

### الخدمات الوقفية لحجّاج بيت المقدس من غير المسلمين:

كان يجتمع في بيت المقدس أعداد كبيرة من النصارى واليهود لزيارة أماكنهم المقدّسة والاحتفال بمواسمهم الدينية، وتشير سجلات الرهبان أن عدد الحجّاج بلغ في بعض السنين ما بين العشرة والاثني عشر ألفاً، فقد بلغ عدد الحجّاج الأحباش النصارى لوحدهم في عام ٨٨٦هـ/ ١٤٨١م ثلاثة آلاف<sup>(٥٥)</sup>، وزاد عدد الحجّاج القادمين من اليونان والجزر اليونانية والأناضول وأرمينيا ومصر وسوريا على ألفي حاج في عام ١٧٨٤م، وفي عام ١٨٨٤م كان هناك ٤٥٠٠ حاج أرثوذكسي، و ٦٠٠ حاج من الأرمن والقبط والسريان<sup>(٥٦)</sup>، فضلاً عن الكاثوليك والموارنة، حيث كان معظمهم ينزلون في أوقاف الكنائس والأديرة والنزل المعدّة لهم والتي منها نزل القديس يوحنا، كما أنهم كانوا يستفيدون من الخدمات التي تقدمها الأوقاف الإسلامية خاصة في المجالات الصحية، وكذا خدمة المياه، والإنارة، والطرق وغيرها، حيث تُبيّن الوثائق العائدة لعام ١٦١١م، أن بساتين الأثمار حول القدس حولت أوقافاً من أجل توفير المال لتأمين الماء والإنارة لعابري السبيل، كما قام الفاضل بوقف حي المغاربة كله لتوفير العون والخدمات لحجّاج شمال إفريقيا، فضلاً عن فقراء المدينة المقدّسة<sup>(٥٧)</sup>.

ويذكر الرحالة فيلكس فابري الذي زار القدس سنة ٨٨٨هـ/ ١٤٨٣م الحفاوة التي كان يجدها الحجّاج النصارى من المسلمين عند زيارتهم للقدس والخدمات التي كانت تقدّم لهم مجاناً من أوقاف هذه المدينة أو من خزينة الدولة، فقد ذكر أن مراكب الحجّاج القادمين من أوروبا كانت ترسو في ميناء يافا، حيث يكون في استقبالهم مندوبون عن نائب القدس، ونائب غزة، وكشف الدولة، ورئيس دير جبل صهيون، وقد هياؤا لهم كل الترتيبات لحمايتهم وتسهيل مهمتهم في الأراضي المقدّسة<sup>(٥٨)</sup>.

ولم تكتف الدولة الإسلامية بذلك فقد خصصت لهم تراجمة يساعدونهم على زيارة الأماكن المقدّسة وحمايتهم، واستدّجار البيوت اللازمة لهم في القدس، وكان الأدلاء من المسلمين والنصارى ويطلق عليهم المكاريون، وكان يشترط في هؤلاء التراجمة معرفة اللغات الأوروبية، وفي المقابل فإن رئيس

٥٥- يوسف غوانمة، تاريخ نيابة بيت المقدس، ص ٨٤.

٥٦- رؤوف سعد أبو جابر، المرجع السابق، ص ٢٧-٢٨.

٥٧- مايكل دمير، المرجع السابق، ص ١٨٩، يوسف غوانمة، المرجع السابق، ص ٨٦.

٥٨- يوسف غوانمة، المرجع السابق، ص ٨٥.

التراجمة يتقاضى أجره رمزية من الحجّاج لمساعدته على أداء مهمته (٥٩). وحتى يسهل سلاطين الممالك تنقل الحجّاج النصارى من يافا إلى القدس قاموا في سنة ٨١٣هـ / ١٤١٠م بتوسيع الطريق وإزالة ما به من عقبات، وزادوا في سعته بحيث يمرّ منه عشرة فرسان متواكبين (٦٠).

وقد كان في القدس ثمانية وعشرون سبيلاً ما زالت آثارها باقية حتى الآن لتوفير المياه لزوار المدينة المقدّسة معظمها: أقيمت في العصر الأيوبي، والملوكي، ومن أشهر هذه الأسبلة التي استمرت في تقديم خدماتها لزوار المدينة المقدّسة حتى أواخر الحكم العثماني، سبيل السلطان الملوكي إينال ٨٥٧-٨٦٥هـ / ١٤٥٣-١٤٦١م، كما تمّ إنشاء سبيل السلسلة في عام ٩٤٣هـ / ١٥٣٦م خصّص لسقيا سكان المدينة المقدّسة والحجّاج وعابري السبيل ومنها سبيل قايتباي، وسبيل شعلان، والبديري، والكأس، وقاسم باشا (٦١)، هذا، ويحتفظ المتحف الإسلامي في القدس بالعديد من الوثائق المتعلقة بوقف الماء ومنها الوثيقة ٧٧ من وثائق المتحف الإسلامي في القدس والتي تنصّ على وقف عشرة طواحين وسوق الليل ومعها بئر على السقايا في القدس (٦٢).

ويذكر المرحوم كامل العسلي بأن في القدس ستة عشر خاناً تقدّم خدماتها الوقفية لزوار المدينة المقدّسة منها على سبيل المثال: خان السبيل الذي بناه الظاهر بيبرس سنة ٦٦٢هـ / ١٢٦٣م لمن يرد القدس من الزوار المشاة، حيث أوقف عليه عدة قرى فضلاً عن طاحوناً وفرنّاً، فقد كان هذا الخان يقدم الخبز للمقيمين فيه من المسافرين والحجّاج لا بل تعدّى الأمر إلى أن يصرف من ريع هذا الوقف لشراء الأحذية للحجّاج المشاة (٦٣). ومنها رباط قلاوون الذي أوقفه السلطان قلاوون عام ٦٨١هـ / ١٢٨٢م على الفقراء من زوار القدس.

أما خان القبط ١٨٣٩م فقد بناه المطران أبراهام ويحتوي على اثنتين وسبعين غرفة لخدمة الحجّاج الأقباط (٦٤). وفي عام ١١٧٥هـ / ١٧٦١م قام دير الأرمن بشراء دارين من عبد الله أفندي

٥٩- المرجع السابق، ص ٨٥-٨٦.

٦٠- المرجع السابق، ص ٨٥.

٦١- نبيل الأغا، لن نقول للقدس وداعاً، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط ١، ١٩٩٨م، ص ٨٥-٨٦.

٦٢- يوسف غوانمة، المرجع السابق، ص ١٠٩.

٦٣- المقرئزي، السلوك، ج ١، ق ٢، ص ٥٢١، نبيل الأغا، المرجع السابق، ص ٨٠.

٦٤- كامل العسلي، من آثارنا في بيت المقدس، عمان، ١٩٨٢م، نبيل الأغا، المرجع السابق، ص ٨٠.

في القدس وأوقفهما على فقراء رهبان طائفة الأرمن القانطين في دير مار يعقوب في القدس<sup>(٦٥)</sup>. وفي عام ١٨٥٧م أقام المليونير اليهودي موسى مونتيغور ببناء صف من منازل الصدقة للعائلات اليهودية الفقيرة في مواجهة صهيون<sup>(٦٦)</sup>.

وزيادة في تأمين سلامة الحجّاج أمنت الدولة الإسلامية لهم العلاج في المصحات الإسلامية الوقفية مقابل رسم رمزي يمكنه من المعالجة في البيمارستان الصلاحي لمدة عام دون أن يحصل منه مبلغ إضافي، وقد زار الرحالة ناصر خسرو القدس سنة ١٠٤٧م ووصف مستشفاهما بأنه مستشفى عظيم يصرف لمرضاة العلاج والدواء وله وقف يأخذ الأطباء مرتباتهم منه، وقد استمر هذا البيمارستان العظيم الذي كان يتسع لألف مريض في عمله حتى عام ١٢٨٦هـ/ ١٨٦٩م<sup>(٦٧)</sup>.

ومن أبرز المؤسسات الوقفية النصرانية واليهودية التي أنشئت في القدس وكانت تقدّم خدماتها لكل الطوائف: مستشفى ماريوحنا لأمراض العيون والذي أسس منذ الحقبة الصليبية، والمستشفى الروسي الذي بناه الروس سنة ١٢٧٦هـ/ ١٨٥٩م، ومستشفى القديس لويس (المستشفى الفرنسي) الذي بني عام ١٢٩٨هـ/ ١٨٨٠م، ومستشفى الإرسالية الإنجليزية الذي بناه مطران الإنجليز جورج فرنسيس سنة ١٣٠٥هـ/ ١٨٨٧م، والقصد منه مساعدة اليهود بالدرجة الأولى، والمستشفى الألماني الذي يعدّ من أكبر المستشفيات في المدينة بني عام ١٣١٢هـ/ ١٨٩٤م، ويسمّيه المغاربة مستشفى المجيدي، والمستشفى الإيطالي الذي بني عام ١٩١٠م، ومستشفى المجانيين، أسسته جماعة يهودية تدعى عزران نشيم، ومستشفى البرص والمخصص لداواة المجذومين وقد بني عام ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧م، ودار الاسبتار "مستشفى القديس يوحنا" منذ العهد الصليبي وظلت قائمة تؤدي دورها في خدمة الحجّاج النصارى طيلة القرن الرابع عشر ٧٢٧هـ/ ١٣٢٢م<sup>(٦٨)</sup>، وخلال فترة الانتداب البريطاني أوقفت أمينة الخالدي أراضي وأملاك لبناء مستشفى<sup>(٦٩)</sup>. وكان أبناء طائفة الفرنسيسكان يخصصون

٦٥- رؤوف سعد أبو جابر، المرجع السابق، ص ٥٦.

٦٦- كارين أرمسترونج، المرجع السابق، ص ٥٧٣.

٦٧- يوسف غوانمة، المرجع السابق، ص ١٣٣.

٦٨- معين حسيب فرج الله، تاريخ القدس العربية، دار سعاد الصباح للنشر والتوزيع، الكويت، ١٩٦٧م، ص ٩٤.

٦٩- مايكل دمير، المرجع السابق، ص ١٩٠.

أطباء لمعالجة أبناء طائفهم وكانوا يمدونهم بالأدوية<sup>(٧٠)</sup> ... إلى غير ذلك من المؤسسات الصحية التي جيشت لخدمة زوار وأهالي المدينة المقدسة بغض النظر عن لونهم أو جنسهم أو عقائدهم.

وتحت تزايد أعداد النصارى الوافدين على القدس ورغبتهم في إبراز معالم مقدساتهم، سمح المماليك للنصارى ببناء كنيسة المهدي فوق مهد المسيح عليه السلام، حيث جمعوا الأموال لبنائها من جميع أنحاء العالم المسيحي في سنة ٨١٣هـ / ١٤١٠م في عهد السلطان فرج بن برقوق. وفي سنة ٩١٩هـ / ١٥١٢م، أصدر السلطان قانصوه الغوري مرسوماً نقشه على بلاطة ألصقها على باب كنيسة القيامة، أمر فيه معاملة النصارى الملكانيين واليعاقبة والقبط معاملة حسنة<sup>(٧١)</sup>.

ومن الملاحظ أن الطوائف النصرانية بدأت تتنافس منذ مطلع القرن التاسع عشر في بناء الأوقاف لخدمة زوار بيت المقدس، ففي عام ١٢٥٢هـ / ١٨٣٦م أقام الأرثوذكس مطبعة ونزلاً للحجاج وخزاناً كبيراً للمياه، كما اشترى الأقباط من آل العلمي طاحونة سمس مع بستان كبير ودفعوا ثمناً لذلك كله ٨٠٠٠ ثمانية آلاف قرش وبنوا على كامل الأرض بعد إزالة المطحنة نزلاً للحجاج الذين يفدون من مصر كل سنة وقد كلف هذا الوقف حوالي نصف مليون قرش<sup>(٧٢)</sup>.

#### حماية الدولة الإسلامية لأوقاف أهل الذمة:

عندما تسلّم الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه مفاتيح المدينة المقدسة رفض الصلاة في كنيسة القيامة حتى لا يأخذها المسلمون منهم ويبنوا مكانها مسجداً، وذلك مراعاة لحرمة الأماكن المقدسة عند غير المسلمين والتي حرص الإسلام على حمايتها وعدم التعرض لها ولمن يقصدها، لا بل أن المصطفى صلى الله عليه وسلم قال من آذى ذمياً فقد آذاني<sup>(٧٣)</sup>، وعلى ضوء هذا التوجيه، حرص المسلمون حكماً ومحكومين على عدم المساس بالحرية الدينية لأهل الذمة ومعاملتهم بكل رفق على مرّ فترات التاريخ، وكان حكام المسلمين يرفضون كل الرفض الاعتداء على أماكن العبادة مهما كانت الظروف، فعلى سبيل المثال، عندما حرر صلاح الدين الأيوبي بيت المقدس عام ٥٨٣هـ / ١١٨٧م أشار عليه بعض أصحابه أن يهدم كنيسة القيامة كي لا يبقى لنصارى الغرب حجة لغزو البلاد المقدسة، لكنه

٧٠- محمود العابدي، قدسنا، مطبوعات جامعة الدول العربية، القاهرة، ١٩٧٢م.

٧١- المقرئ، المرجع السابق، ج ٢، ط ١، ص ١٤٤، يوسف غوانمة، المرجع السابق، ص ٨٥، ١٢٢.

٧٢- رؤوف سعد أبو جابر، الوجود المسيحي في القدس، ص ٣٢.

٧٣- انظر: الأحاديث في هذا الباب، أبو داؤد السنن، رقم ٣٠٥٢، البيهقي، السنن الكبرى، ج ٥، ص ٢٠٥،

أحمد بن حنبل، المسند، ج ٢، ص ١٨٦، ابن قيم الجوزية، أحكام أهل الذمة، ج ٢، ص ٨٤١.

رفض مجرد مناقشة الفكرة وأمر المسلمين بالمحافظة عليها وعدم مساسها بسوء. وتعدى الأمر ذلك إلى اتخاذ صلاح الدين الأيوبي عالماً مسيحياً هو يوسف بابيط مستشاراً له في الشؤون المسيحية<sup>(٧٤)</sup>. وفي العصر المملوكي وبالتحديد سنة ٩١٩هـ/ ١٥١٣م أصدر السلطان قانصوه الغوري مرسوماً نقشه على بلاطة ألصقها على باب كنيسة القيامة أمر فيه بمعاملة النصارى بالحسنى، كما كان السلطان محمد بن قلاوون قد أصدر عدة مراسيم للمحافظة على ممتلكات الطوائف الوقفية المختلفة جاء في أحدها والذي يتعرض لطائفة الأرثوذكس - بأن لا يتعرض أحد إلى ديرهم ولا لكنائسهم ولا لشيء من أرضهم. وقد رد السلطان الملك الظاهر أبو محمد سعيد جقمق دير مار يعقوب للأرمن بتاريخ ٨٥٠هـ/ ١٤٤٦م وقد كان قرار السلطان بعودة الدير إلى الأرمن مصدر سعادة كبيرة لهم حتى أنهم علقوا هذه الوثيقة على أحد جدران أديرتهم بالقدس.

وتشير سجلات المحكمة الشرعية في بيت المقدس إلى أن القاضي نظر في شكوى قدمها إليه بطريك الأرمن الذي حكم بحقهم في الدير بعد أن استمع إلى شهادات الطوائف الأخرى كالقبط والحبش والسريان<sup>(٧٥)</sup>.

وفي عهد السلطان الملك الأشرف قايتباي ٨٧١-٨٩٩هـ/ ١٤٦٨-١٤٩٦م أسلم أحد اليهود هو وأمه، فأوقفت الأم منزلها الواقع في الحي اليهودي ليكون مسجداً للمسلمين، فلجأ المسلمون في المدينة إلى المحكمة الشرعية سنة ٨٧٨هـ/ ١٤٧٥م ليجلوا اليهود من مجاورة المسجد الجديد، وإزالة كنيس اليهود، وحكمت محكمة القدس لصالح المسلمين، ولكن اليهود استأنفوا الحكم عند سلطان مصر، فنقضت محكمة القاهرة حكم القدس، وأفتت بأن لا ضير بأن يقوم المسجد بجوار الكنيس اليهودي، وأمرت بإعادة ما تهدم من بناء الكنيس على نفقة المسلمين.

ويقول الدكتور حسن ظاظا الذي أورد هذه الحادثة في كتابه القدس مدينة الله أم مدينة داود أن حاخام اليهود عوبديادي برطينور المعاصر لتلك الأحداث قد سجلها وبعث بها في رسالة من القدس<sup>(٧٦)</sup>.

٧٤- نبيل خالد الأغا، المرجع السابق، ص ١٠٣-١٠٤.

٧٥- عبد الرحمن سعيد حمودة، بيت المقدس في عهد المماليك - رسالة ماجستير غير منشورة - كلية اللغة العربية، جامعة الأزهر، ١٩٧٩م، ص ١٠٣-١٠٤.

٧٦- محمد علي البار، القدس والمسجد الأقصى عبر التاريخ مع دراسة تحليلية للقضية الفلسطينية، الدار السعودية للنشر والتوزيع، ط ١، ٢٠٠٢م، ص ١٧٧-١٧٨.

فأي تسامح أعظم من هذا التسامح؟ وأي احترام للأديان وأماكن العبادة أكثر من هذا الاحترام؟ وأين هذا مما نشاهده صباحاً مساءً مما يفعله اليهود في أوقاف فلسطين والقدس على الخصوص من تحطيم للمؤسسات الوقفية بمختلف أنواعها، حيث دمروا المساجد والكنائس والأديرة، وحولوا العديد من المدارس والمساجد الإسلامية إلى مراقص واصطبلات أو متاحف أو مراكز للشرطة والجيش؟؟

وعندما نشب الخلاف بين طوائف النصارى بعد حريق كنيسة القيامة فجر الأربعاء الواقع في ٣٠ أيلول (سبتمبر) ١٨٠٨م على من له الحق في إعادة إعمار الكنيسة وبعد اعتراض الأرمن على فرمان الذي صدر من السلطان بأحقية الروم الأرثوذكس في تعمير الكنيسة، أمر السلطان بتشكيل لجنة من سبعة قضاة تحت رئاسة شيخ الإسلام للنظر في دعوى الأرمن وقد حكمت المحكمة للأرثوذكس وحدهم دون اشتراك الطوائف الأخرى معهم<sup>(٧٧)</sup>.

واعترافاً من طوائف النصارى المختلفة بعدالة وتسامح المسلمين نجدهم يسندون الإشراف على أقدس كنيسة عندهم ألا وهي كنيسة القيامة والتي كانت تحتوي على ذخائر ونفائس وجواهر كريمة منها سيف بطرس الأكبر قيصر روسيا إلى أسرتين مسلمتين من القدس هما: أسرة جوده، وأسرة نسيبة، حيث كانا يقومان بخدمة الكنيسة وحراستها منذ زمن صلاح الدين الأيوبي وحتى اليوم، فعائلة جوده تحتفظ بالمفاتيح، وعائلة نسيبة تفتح الكنيسة في مواعيدها. ولم يحدث طوال ثمانمائة سنة أن أدخل المسلمون بواجب الأمانة أو التقصير في حماية ورعاية الأماكن المقدسة عند كل الطوائف المسيحية أو اليهودية.

ومن الجدير بالذكر أن الجنرال أَلنَّبِيي عندما دخل مدينة القدس عام ١٩١٧م، توجه لزيارة كنيسة القيامة وتسلم مفاتيحها لكنها لم تلبث في يده مدة طويلة، فسرعان ما ردها بنفسه إلى أسرتي جوده وآل نسيبه يقيناً منه على حسن إدارة المسلمين لهذه الكنيسة، ومن المعلوم أن حامل مفاتيح كنيسة القيامة حالياً هو السيد عبد القادر أديب جوده<sup>(٧٨)</sup>.

ولعل تسمية الأقباط لأحد أديرتهم باسم دير السلطان شهادة حق على سماحة صلاح الدين والإسلام الذي يمثله، فقد رد صلاح الدين الأيوبي للأقباط أديرتهم وأملاكهم بعد تحرير المدينة من

٧٧- رؤوف سعد أبو جابر، المرجع السابق، ص ١٤.

٧٨- نبيل الأغا، لن نقول للقدس وداعاً، ص ٧٦-٧٨، محمد علي البار، المرجع السابق، ص ٥١.

الصليبيين، فأطلقوا اسم دير السلطان على إحدى هذه الأديرة الملاصقة لكنيسة القيامة من الجهة الجنوبية الشرقية وجعلوه المركز الرئيسي لطائفتهم في القدس<sup>(٧٩)</sup>.

#### الخاتمة:

من خلال معالجة هذا الموضوع خرجت الدراسة بالملاحظات الآتية:

- ١- أن أوقاف القدس في فترة الحكم الإسلامي تمثل تجربة للتعارف بين الأجناس والتعايش بين الأديان على المستويين المحلي والعالمي.
- ٢- تعدد مدينة القدس من أكثر المدن في العالم أوقافاً، إذ يوجد في كيلومتر مربع واحد، وهي مساحة المدينة داخل السور أكثر من ٢٧٤ معلماً وقفياً للمسلمين واليهود والنصارى. أما في المدينة داخل السور وخارجه فقد كان هناك ٢٤٠ محراباً، وثمانية وعشرون سبيلاً، وستة عشر خاناً، وأكثر من ١٧٠ مكتبة ملحقة بمدرسة ومسجد وكتاب، و ٧٠ زاوية صوفية، فضلاً عن ٥٩ ديراً وكنيسة نصرانية، و ١٤ كنيسة لليهود، ناهيك عن المستشفيات.
- ٣- أن فلسطين تكاد تكون كلها وقف إسلام على بيت المقدس، فلا تكاد تكون مدينة أو قرية لا يكون فيها وقف للقدس، لا بل أن أوقاف القدس انتشرت في قارات العالم سواء للمسلمين أو لأهل الذمة.
- ٤- يندر أن نجد حاكماً مسلماً منذ العصر الأيوبي مروراً بالعصر المملوكي وانتهاءً بالعصر العثماني لم يترك أثراً وقفياً خيرياً فيها، وتعدى الأمر إلى ملوك الهند والمغرب، وكذلك نجد أوقاف الكنائس، والأديرة النصرانية، والكنس اليهودية تنتشر في أقطار شتى من العالم النصراني.
- ٥- أن أوقاف القدس ساهمت فيها معظم الأعراق والأجناس والأديان والطوائف والمذاهب، فكانت هناك أوقاف للأحناف والشافعية والمالكية والحنابلة، فضلاً عن تلك الأوقاف التابعة لسبعين طريقة صوفية، كان ينتفع بها المغربي والكردي والمصري واليمني والشامي والأندلسي والهندي والفارسي ... كما مثلت أوقاف القدس الكاثوليكي والأرثوذكسي والبروتستانتية والأرمني والقبطي والسرياني والماروني والحبشي والألماني والإسباني والروسي والطلباني ... إلخ في لوحة من التجاور والتعايش عرّ نظيرها.

٧٩- رؤوف سعد أبو جابر، المرجع السابق، ص ٥٧.



٦- أن قمة التعايش بين الأديان بلغت ذروتها عندما عهدَ النصارى للمسلمين بالإشراف على أقدس بقعة لديهم، ألا وهي "كنيسة القيامة"، حيث دفعت مفاتيحها لأسرتين مسلمتين منذ عهد صلاح الدين الأيوبي وحتى اليوم، لا بل أن الجنرال أَلنَّبِيّ عندما دخل القدس عام ١٩١٧م أخذ المفاتيح من المسلمين ولكن ما لبث أن ردها لأهلها من آل جودة وآل نسيبة إقراراً منه بعدالة المسلمين واحترامهم لحرية الآخرين. كما أن المسلمين في عهد عبد الملك وولده الوليد عهدوا لعشرة من النصارى وعشرة من اليهود بصناعة القناديل والفتائل والحصص للمسجد الأقصى وفي هذه الخطوة إشارة واضحة لسعي المسلمين لنشر المحبة والسلام وإرساء قواعد التعايش في هذه البقعة المقدّسة.

٧- أن أوقاف القدس كانت تتميز بالوحدة والتنوع: الوحدة بالهدف وهو خدمة زوار المدينة المقدّسة سواء كانوا مسلمين أم غير مسلمين بتوفير الطعام والكساء والمأوى والعلاج والتعليم، والتنوع بأن المسلمين على اختلاف مذاهبهم وأجناسهم والنصارى على اختلاف طوائفهم وأعراقهم ساهموا في تلك الأوقاف، فكانت أوقاف القدس عالمية بكل ما تعنيه الكلمة، إنسانية في رسالتها وفي تسامحها ومحبتها وبذلها.

٨- أن أوقاف القدس الثقافية خاصة الإسلامية منها حولتها إلى جامعة عالمية مفتوحة يقصدها طلبة العلم والعلماء من مختلف أرجاء المعمورة خاصة بعد تحريرها على يد صلاح الدين الأيوبي، وغدا لا ترى فيها كما يقول العماد الأصفهاني إلا قارناً باللسان الفصيح وراويّاً للكتاب الصحيح، ومتكلماً في مسألة وذاكرا لحكم مذهبي وسائلا عن لفظ لغوي ومعنى نحوي أو ناشداً بنشيد.

٩- تعدّ مكتبة الشيخ الخليلي أول مكتبة عامة يوقفها أحد أبناء مدينة القدس.

١٠- من أهم الأوقاف الإسلامية وغير الإسلامية في القدس التي كانت تقدّم خدمات متنوعة: وقف تكية خاصكي سلطان الذي أوقفته زوج السلطان سليمان القانوني، ووقف خان السبيل وغيرها مما كان يقدم الطعام والكساء والنعال فضلاً عن أكفان الموتى للفقراء، كما كانت كنيسة المخلص في عام ١٨٣٤م توزع الخبز أسبوعياً على نحو ثمانمائة مسلم ومسيحي.

١١- أن أوقاف القدس الإسلامية قدمت خدمات متميّزة للحجاج النصارى القادمين من مختلف أنحاء العالم، حيث كانوا يستقبلون استقبالا رسمياً في يافا، كما كانت الدولة الإسلامية تعتني بتوسعة الطرق المؤدية إلى القدس من أجل تسهيل حركتهم، كما وفّرت لهم الحراسة والمترجمين، وهذا ما أكدّه الرحالة اليهود والنصارى والمسلمين. ومن أبرز الأوقاف الإسلامية

التي كان ينتفع بها الحجّاج النصارى ثمانية وعشرون سبيلاً للماء وستة عشر خانا منها خان السبيل الذي كان يصرف وقفه نعلا للحجّاج المشاة، كما أن المستشفى الصلاحي الإسلامي يقدّم خدماته للحجّاج النصارى إلى جانب العديد من المستشفيات الوقفية التابعة للإرساليات الأجنبية التي كانت تقدّم خدماتها للمسلمين والنصارى بالمجان.

١٢- من مظاهر عدالة المسلمين وتسامحهم حرصهم الشديد على حماية أوقاف اليهود والنصارى وعدم التعرض لها بأي شكل من الأشكال، فقد رفض صلاح الدين بعد تحريره للقدس مشورة بعض أصحابه بهدم كنيسة القيامة حتى لا يعود الصليبيون مرة أخرى للقدس، لا بل إنه رفض حتى مناقشة الموضوع وأمر بالمحافظة عليها والإحسان للنصارى. كذلك خلد النصارى أوامر سلاطين المماليك التي تدعو إلى الرفق بأهل الذمة بنقشها على جدران كنائسهم وأديرتهم، ولعل تسمية مقرّ طائفة الأقباط بالقدس باسم دير السلطان شهادة من هذه الطائفة على عدالة الإسلام وعدالة صلاح الدين الذي رد لهم هذا الدير بعد تحرير القدس. كما أن المحاكم الإسلامية أمرت بإعادة بناء كنيس هدمه المسلمون وأغرمتهم أثمان المنازل التي خربت على يد المسلمين، مما حدا بكبار حاخاماتهم بالثناء على عدالة المسلمين.

١٣- أن كثرة الأوقاف الإسلامية في مدينة القدس والتي ساهم فيها الرجال والنساء والعلماء والحكّام والتجّار وكل شرائح المجتمع الإسلامي من مختلف الأرجاء تعبّر بكل تأكيد عن مكانة القدس العظيمة في قلوب المسلمين، ولعل الناظر لوثائق المتحف الإسلامي في القدس ليجد الدليل والبرهان، فهناك على سبيل المثال ٧٥٠ وثيقة ووقفية، ناهيك عن غيرها في الأرشيف العثماني ودور المحفوظات العالمية.

١٤- من الملاحظ أن اليهود الصهاينة قد صرفوا الوقف في المدينة المقدّسة عن القصد النبيل وهو فعل الخير ومساعدة الفقراء وتقديم الخدمات لزوار الأماكن المقدّسة واتخذوا منه حصان طروادة للاستحواذ على القدس وفلسطين، فعن طريق الأوقاف جعلوا لهم موطأ قدم، وما لبثوا أن سرقوا الأرض وهودوا فلسطين، وبدؤوا بتدمير الأوقاف الإسلامية والنصرانية عن طريق المصادرة أو الهدم أو تحويلها إلى ثكنات عسكرية أو ملاهي ليلية، لأنها ترى في تلك الأوقاف شهادة على عروبة وإسلامية فلسطين، وأنها تذكرهم دوماً بأنهم لصوص وغرباء عن الأرض المقدّسة.

أجل لقد أوجدت أوقاف القدس نوعاً فريداً من التعاون بين المسلمين على اختلاف مذاهبهم وفرقهم من جانب، وبين المسلمين وغيرهم من يهود ونصارى على اختلاف طوائفهم تعاوناً كان شعاره المحبة والسلام واحترام كرامة وحرية الإنسان، تعاوناً يسمو على الجنس واللون والعصبية، تعاوناً جعل من العدالة الإسلامية نبراساً له، فانتفى العنف والاحتراب وسار الجميع صفاً في محبةً وطمأنينة لخدمة الإنسان إذ كانت القدس إبان الحكم الإسلامي من أكثر المدن أمناً واستقراراً.

فحريّ بنا تأمل هذه التجربة واستخلاص الدروس والعبر في وقت تتعرض فيه هذه المدينة المقدسة لأبشع عملية الهيمنة والاستحواذ وإقصاء لكل من هو ليس بيهودي من خلال روح عنصرية ترفض الآخر ولا تؤمن بأي حق لغير اليهودي في هذا المكان المقدس.

#### التوصيات:

- ١- الإسراع في تنفيذ توصيات اتحاد الجامعات الإسلامية والعربية في تخصيص مقرّ يحمل اسم تاريخ القدس ليكون متطلباً عاماً في الجامعات الإسلامية والعربية لتعريف أبناء الأمة بتجربة هذه المدينة الفريدة في التعايش والتسامح بين الأديان وما ترتب عليها من أمن وسلام ورخاء إبان الحكم الإسلامي، فضلاً عن التأكيد على عروبة وإسلامية القدس.
- ٢- إنتاج فيلم تسجيلي عن أوقاف بيت المقدس والتعريف بالدور الإنساني الذي قامت به عبر حقب التاريخ الإسلامي.
- ٣- العمل على تأسيس جمعية دولية تشارك فيها الهيئات والجمعيات العربية والإسلامية وغير الإسلامية لحماية الإرث الثقافي لهذه المدينة، لأنه إرث إنساني يجب المحافظة عليه، فضلاً عن تفعيل توصيات المنظمات الدولية التي نصّت على اعتبار الإرث الثقافي في القدس إرثاً إنسانياً مهدداً بالأخطار يجب المحافظة عليه.
- ٤- إبراز ما تتعرض له أوقاف المدينة المقدسة من تهديد وأخطار من قبل الصهاينة في المحافل الدولية ووسائل الإعلام المختلفة.
- ٥- تخصيص قسم خاص في المتاحف العربية والإسلامية لآثار وأوقاف القدس لتبقى المدينة حية في نفوس الأمة.
- ٦- إصدار طوابع تذكارية ومداليات تخليداً للأوقاف المقدسية التي لعبت دوراً اجتماعياً أو ثقافياً عبر تاريخ المدينة.

- ٧- تشجيع الصناعات اليدوية التي تجسّد معالم القدس الوقفية داخل وخارج القدس، ويكون جزء من ريع هذه الصناعات لخدمة أوقاف القدس.
- ٨- إحياء سنّة الوقف لدعم المدينة المقدّسة داخل القدس وفي العالم لإحياء أوقافها التي تعطلت عن تأدية دورها بسبب الإهمال أو قلة الموارد، وهذا يتطلب بث الوعي بين أثرياء الأمة لممارسة دورهم لتعزيز صمود أبناء القدس، والمحافظة على هوية أولى القبليتين وثالث الحرمين.
- ٩- توجيه طلبة الدراسات العليا والباحثين لمزيد من الدراسات حول التجربة الوقفية لهذه المدينة المقدّسة، وما قامت به تلك الأوقاف من دور في بث ثقافة التعايش والسلم والمحبة بين البشر على اختلاف أجناسهم وأديانهم ومعقداتهم. والحمد لله رب العالمين.

\* \* \* \*